

أهم فقهاء المذهب الشافعي بالمغرب الإسلامي

(296-361هـ/909م-972م)

أ. كباس يمينة.

aminakabas1990@gmail.com

المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة — الجزائر

ملخص:

عرف المغرب الإسلامي تنوعا مذهبيا هاما خلال العصر الوسيط، ولعل الفترة الممتدة من (296-361هـ / 909م-972م)، تُعد أكثر المراحل الزمنية التي عرفت حراكا سياسيا ومذهبيا هاما في تاريخ المنطقة، فذلك التنوع المذهبي الذي تميّزت به بلاد المغرب جعل تاريخها قبلة للباحثين والمؤرخين خاصة المهتمين منهم بالتاريخ السياسي والمذهبي، ومن أهم مذاهب أهل السنة التي وطأت أرضه، وتستوجب الدراسة، المذهب الشافعي، انطلاقا من تسليط الضوء على أهم رجالاته وفقهائه، وما كان لهم من دور في تلك الحركة المذهبية النشطة التي عرفت المنطقة خلال الفترة المذكورة آنفا، تحت ظروف سياسية واجتماعية وثقافية مميزة، جعلت من التأريخ والترجمة لفقهاء هذا المذهب أهمية وميزة خاصة.

الكلمات المفتاحية: الفقهاء، المذهب الشافعي، المغرب الإسلامي.

The most important scholars of shafi'i doctrine in the Islamic Maghreb(296-361/909-972)

Abstract :

The islamic Maghreb has known a great doctrinal diversity during the period of (296-361/909-972) islamic history which is the period that witnessed political and doctrinal movement, the most important doctrines of the sunnis was the shafi'i doctrines, which it requires a historical study starting with its prominent men, and jurists who came to the land and had a role in the dynamic movement that the region experienced in the period mentioned above under distinct, political, social and cultural conditions.

Keywords:

The jurists, the shafi'i doctrine, the Islamic Maghreb.

المقال:

تميّز المغرب الإسلامي في العصر الوسيط بفسيفساء مذهبية، جعلت منه مساحة بحث هامة للدارسين والمهتمين بتاريخ المذاهب والطوائف الدينية الإسلامية، على غرار المذاهب السنيّة المعروفة، التي نشأت ببلاد المشرق وانتقلت بفضل عدة عوامل إلى بلاد المغرب، وتأثر بها سكانه فانتشرت في ربوعه، ولعل من بين أهم تلك المذاهب نجد المذهب الشافعي، الذي لم ينل -إن صح التعبير- حظه من الدراسة بأرض المغرب، مقارنة بما حظي به من اهتمام وبحث وتدوين لعقائده وكل ما يتعلق به بالمشرق، لذا فإن الحديث عنه وعن فقهاءه بالمغرب الإسلامي على عهد الدولة الفاطمية (296هـ-361هـ/909م-972م) يُعد على قدر من الأهمية في الدراسات التاريخية الحديثة، وعليه نتساءل هنا كيف كان المذهب الشافعي ببلاد المغرب الإسلامي في عهد الدولة الفاطمية، ومن هم أهم فقهاءه وكيف تعاملوا مع الحراك المذهبي السياسي الذي كانت تعرفه المنطقة وقتها؟

يُنسب المذهب الشافعي إلى أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (150هـ/204هـ - 767م - 819م)، وأصول مذهبه هي: الكتاب والسنة، الإجماع وأقوال الصحابة والقياس، وقد أبدى الإمام الشافعي قدرة فائقة في مجال تنظيم وتقنين أصول الفقه كما يتجلى ذلك في كتابه "الرسالة"، الذي يُعدّ الأول من نوعه لدى المسلمين في

هذا الباب، ولعل هذا ما جعل بعض أهل إفريقية-أقلية منهم- يتأثرون به ويتبنون مذهبه.

أ/المذهب الشافعي وانتشاره بالمغرب الإسلامي :

يكاد يكون ضئيل الانتشار بإجماع بعض المؤرخين، ولا يوجد تعليل منطقي لانصراف أهل المغرب الإسلامي عامة وطلبة العلم خاصة عن هذا المذهب، لذا لجأنا إلى بعض ما وجدنا من قرائن ودلائل جاءت على لسان المقدسي، تفسّر ذلك الانتشار الضئيل بكون المغاربة رفضوا التمدّ به مذهب الشافعي تعصبا منهم لمالك، لأنه ساءهم أن يخرج الشافعي عن مذهب شيخه بمذهب جديد، وهو الذي أخذ العلم عنه¹، لكن هذا التفسير يبقى غير منطقي نوعا ما، لأن الإنسان بطبعه يميل إلى ما يخدم أفكاره، ويتماشي مع بيئته، وليس من المعقول أن يتمسك بمذهب معين، لمجرد أنه اختياره الأول في التمدّ به منذ البداية ولم يرد تغييره، رغم رغبته في مذهب آخر، أما السبب الثاني الذي يحمل نوعا من الموضوعية ربما- فيما رواه المقدسي دائما- هو أن المغاربة لم يروا وقتها ما يثير اهتمامهم في المذاهب الأخرى، لأنهم اكتفوا بمذهب مالك والحنفي، وما دونهما لم يلقى من الأهمية شيء، اللهم إلا بعض الأفراد ممن كان يبحث عن الابتعاد عن دائرة الاختلافات والخلافات الناشئة بين المالكية والحنفية، لكن يبقى الغالب منهم ينهل من بحري هذين المذهبين، مبتعدا عن الانشغال بالساقية كما يعبر عنه المقدسي²، مستغنين عن غيرهما، لكننا كما ذكرنا لا نعدم وجود بعض ممن تمذهب بمذهب الشافعي من المغاربة، ولعل كتب التراجم والطبقات قد أشارت لبعضهم.

ولا يمكننا الحديث عن الفقهاء الشافعية بالمغرب الإسلامي، دون أن نتطرق إلى كيفية دخول هذا المذهب إليه، مع الأسف فإن المصادر والمراجع التاريخية لا تذكر شيئا عن ذلك، لكننا نرجح في ذلك عامل الرحلة كونه المنفذ الأقرب لتسلل هذا المذهب إلى المغرب الإسلامي، خاصة ما كان منها للحج، فالحجاج المغاربة لم تكن رحلاتهم إلى المشرق وإلى الحجاز فقط للحج، وإنما للتزود بعلوم رجال المشرق، والاعتراف قدر

المستطاع من علومهم على اختلاف مشاربها، أما المسار الثاني فيمكن أن يكون عن طريق مَنْ وَقَدَ إلى بلاد المغرب الإسلامي من أهل الأندلس³ عائدا من المشرق متأثرا بمن لاقى به من شافعية وأخذ بآرائهم.

ب/أهم فقهاء المذهب الشافعي بالمغرب الإسلامي:

كما ذكرنا سالفا أن معظم المصادر والمراجع التي أمكننا الإطلاع عليها لا تذكر من كان من فقهاء المذهب الشافعي بالمغرب الإسلامي على عهد الدولة الفاطمية، لكننا حاولنا من خلال بعض ما أشارت إليه تلك المؤلفات، ذكر بعض فقهاء المذهب الشافعي والترجمة لهم ولو بصورة مختصرة، مثلما هو الحال مع أبو زيد الدباغ، الذي ذكر في مؤلفه "معالم الإيمان" ترجمة لرجلين منهم، هما: **أبو عثمان سعيد بن محمد الغساني المعروف بابن الحداد**⁴، والذي يُذكر أنه كان مالكيًا ثم تحوّل إلى الشافعية، غير أن هذا الرأي لا يذهب إليه غيره، فباقي المصادر والمراجع في معظمها تضمّنه إلى قائمة فقهاء عصره من المالكية، وإن كان فقهاء السنة في الفترة قيد الدراسة متداخلي المذاهب كثيرا، بمعنى أن الكثير منهم كان على مذهب سني معين ثم تحوّل عنه إلى مذهب سني آخر كالشافعي أو الحنفي أو المالكي بعد أن كان على غيره، وذلك تأثرا بآراء فقهاء ذلك المذهب وشيوخه .

ومنهم أيضا: **أبو العباس الفضل بن نصر الباهي المعروف بابن الرايس**⁵، **أبو عبد الله محمد بن علي البجلي** (ت314هـ/926م)⁶، **وأبو إبراهيم إسحاق بن النعمان** (ت315هـ/927م)، **وأبو العباس التستري**، وكذا **أبو العباس السندي** الذي ضُربَ وعُذِبَ من قِبَل الشيعة، وتوفي قبل سنة (320هـ/932م)⁷، على أن أبرزهم هو **عبد الملك بن محمد الضبي المعروف بابن بردون**⁸، الذي كان من المناظرين في الفقه والجدل، إلا أنه تشرّق وكان يفتخر بذلك.

يمكننا أن نلاحظ من خلال الروايات التاريخية القليلة عن أتباع هذا المذهب، أنهم لم يتبوؤوا مناصب يمكن أن تساعد على نشر مذهبهم وتكوين قاعدة اجتماعية مرموقة له، كما هو الحال مثلاً بالنسبة للمذهبيين الحنفي والمالكي، لأن تبوأ المناصب والخطط الهامة في دولة معينة بالمغرب الإسلامي وقتذاك، كان يُمكنُ الفقيه الذي يتولاها من تكوين قاعدة اجتماعية مذهبية هامة، تُحوِّله لنشر مذهبه وربما فرضه بدعم سياسي، وبشكل مباشر أو غير مباشر، وفقهاء الشافعية بالمغرب الإسلامي على عهد الدولة الفاطمية خاصة لم يتصدروا تلك الخطط أو يتولَّوها، فمثلاً حتى عندما عُرضت خطة القضاء على أبي عيد الله علي بن البجلي رفضها، ليس هذا وحسب ما حال دون انتشار المذهب الشافعي بالمغرب الإسلامي، وإنما كان لترسبات منشأ المذهب في حد ذاته دور في عدم انتشاره، ذلك أنَّ الإمام الشافعي تلقى العلم عن الإمام مالك، ثم خالفه في بعض الأصول كالاستحسان وعمل أهل المدينة، ما حال دون ذيوعه بشكل كبير، وابتعادهم عنه، لأنهم رأوا بأن الإمام الشافعي أقل سعة في علمه من الإمامين أبي حنيفة ومالك، كونه تتلمذ على يدي الإمام مالك، لذا وعلى الرغم من وجود مصر على طريق رحلة المغاربة إلى بلاد المشرق، والاهتمام الذي أبداه الإمام الشافعي بعد إقامته بها بنشر مذهبه، خصوصاً من خلال تقريبه لطلبة العلم الغرباء منه، وحثه لكبار تلاميذه على ذلك، فإن هذا الأمر لم يفلح في جلب فقهاء المالكية إلى مذهبه، ما عدا بعضهم ممن أبدوا ميولاً إلى هذا المذهب في بعض المسائل، مثل: أبي العباس عبد الله بن أحمد المعروف بالأبياني، وأبو القاسم السيوري⁹، فإن جُلَّهم كان ييغض هذا المذهب، وضيَّقوا على أتباعه مستعينين في ذلك بقضائهم¹⁰.

ونظراً لشدة امتعاضهم منه فإنهم لم يتوانوا في وضع المؤلفات في الرد على الشافعي، منها: كتاب "الرد على الشافعي وأهل العراق" لمحمد بن سحنون¹¹، وكتاب "الرد على الشافعي" ليحيى بن عمر¹²، وكتاب "الرد على المخالفين لمالك" - من الشافعية

وغيرهم-لعبد الله بن أحمد بن طالب¹³، ولعل هذا ما حمل ابن العباداني الشافعي على انتقاص مالك في مجلس محمد بن سحنون¹⁴.

ج/موقف فقهاء الشافعية من الدولة الفاطمية الشيعية:

وعلى الرغم من أن المصادر والمراجع لا تذكر لنا إن كان الشافعية قد وضعوا مصنفات أو مؤلفات بصفة عامة في الرد على الشيعة العبيديين، إلا أننا لا نستبعد ذلك انطلاقاً من وضع بعضهم مؤلفات في الرد على المالكية، وهم أهل سنة مثلهم، فكيف بمن هم على غير مذهبهم، خاصة وأن الشافعية كما يذكر الخشني كانوا من أهل النظر، مما يوحي لنا تفاعلهم مع شتى التطورات الفكرية، ومما يؤكد ذلك أيضاً هو مؤلف أبو عبد الله محمد بن علي البجلي الذي ألفه في "الرد على الشوكية"¹⁵، وكتاب في "الحجة في الشاهد واليمين" في أربعة أجزاء، وهي مؤلفات في الرد على المالكية، لذا لا يُستبعد أن تكون هناك تأليف من طرف الشافعية في الرد على الشيعة لكن لم تذكر المصادر عنها شيئاً.

د/أهم فقهاء الشافعية بعدوة الأندلس (296هـ-361هـ/909م-972م):

ولا يمكننا أن نتجاوز ذكر فقهاء الشافعية بالأندلس خلال الفترة قيد الدراسة، حيث يفيدنا عمر الجدي في كتابه "مباحث في المذهب المالكي" بذكر جملة من فقهاء الشافعية بالأندلس فيما يوافق عهد الدولة الفاطمية بالمغرب الإسلامي، وكذا ذكر من دخل هذا المذهب على أيديهم إلى الأندلس، "حيث يُعزى ذلك إلى جماعة من كبار العلماء، منهم قاسم بن محمد بن سيار القرطبي، الذي رحل إلى المشرق أواسط القرن الثالث الهجري، ودرس على كبار شيوخ الشافعية، ولما عاد إلى الأندلس أنكر على فقهاؤها تقليدهم الأعمى لما كان عليه شيوخهم المالكية، وانصرف إلى نشر المذهب الشافعي بين أهل بلده عن طريق التدريس والتأليف، وعهد إليه الأمير محمد بتحرير وثائقه وشروطه، وظل بهذا المنصب إلى وفاته سنة (276هـ/890م).

ويذكر أيضا المحدث المسند بقي بن مخلد، الذي كان أول من أدخل كتب الشافعي إلى الأندلس، وخلف وراءه نفرا طيبا من تلاميذه، الذين درّسوا المذهب الشافعي على يديه منهم: هارون بن نصر القرطبي (ت302هـ/914م)¹⁶، وعثمان بن وكيل من أهل المدور الأقصى من حوز قرطبة، وحرقوق بن عثمان بن سعيد الجباني (توفي قريبا من سنة320هـ/932م) وأسلم بن عبد العزيز بن هاشم بن خالد (ت319هـ/931م)، وعبد السلام بن السمع بن نابل الهواري (ت303هـ/915م)، رحل إلى المشرق وتفقه بمصر للشافعي، وقدم الأندلس، وكان حافظا لمذهب الشافعي حسن القيام به، وعبد الله بن محمد بن عبد المؤمن التجيبي القرطبي المعروف بابن الزيات (ت314هـ/926م)، رحل مرتين إلى المشرق وتمذهب بمذهب الشافعي¹⁷.

بعض المصادر التاريخية مثل القاضي عياض المالكي تذكر جملة ممن حمل المذهب الشافعي أو تحوّل إليه مثل: محمد بن لبابة، يحيى بن عبد العزيز، أحمد بن شرين، محمد بن إسماعيل التجيبي، كلهم كانوا على مذهب الشافعي، والأمير الحكم الثاني كان يظلل بحمايته نفرا من الشافعية تحوّلوا إلى مذهب الاعتزال، وكان هو نفسه يحتفظ في مكتبته بنسخة من كتاب الأم للإمام الشافعي، إلى غير هؤلاء من الأعلام الذين تمذهبوا بالمذهب الشافعي¹⁸ كان هؤلاء من تيسر لنا ذكرهم مما ذكر في المؤلفات التاريخية، من فهاء هذا المذهب في المغرب والأندلس خلال الحكم الفاطمي لبلاد المغرب الإسلامي، دون أن نجد من تابع أعمالهم وسيرهم.

ومما سبق يمكن أن نستنتج موقف فقهاء الشافعية من الدولة الفاطمية الشيعية، فهم على موقف أهل السنة وإن كانت بينهم بعض الاختلافات في الفروع، إلا أنها لا تتعدى كونها مجرد اختلافات فقهية، لكن علاقتهم بالشيعية الفاطميين وموقفهم منهم يختلف تماما عن علاقتهم بأهل السنة، فرغم قتلهم وضعف حيلتهم ببلاد المغرب الإسلامي، إلا

أنهم شاركوا باقي أهل السنة وأهل المغرب الإسلامي بصفة عامة حتى الخوارج منهم موقف الرفض المطلق للعبيديين، واتفاقهم السياسي رغم الاختلاف المذهبي على مجابهة هؤلاء، والسعي إلى تقويض وجودهم بأرض المغرب الإسلامي، والحيلولة دون انتشار مذهبهم، الذي حاولوا فرضه عنوة على عامة أهل المغرب انطلاقاً من خاصتهم، فنكبوا فئة الفقهاء بصفة خاصة، لكن ذلك لم يغيّر سريرة وعقيدة هؤلاء، فظلوا على موقفهم صابرين مجاهدين، إلى أن انتقل الشيعة الفاطميين إلى مصر سنة (361هـ/972م)، وتغيرت برحيلهم الخارطة الجيو-مذهبية لبلاد المغرب الإسلامي مجدداً.

الهوامش:

¹ يوسف بن أحمد حوالة، الحياة العلمية في إفريقية (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري، ج: 01، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط: 01: 2000م، ص: 313.

² هذا ما يذكره يوسف بن أحمد حوالة على لسان المقدسي دون أن يذكر توثيقه لذلك. ينظر: يوسف بن أحمد حوالة، المرجع نفسه، ج: 01، ص: 314.

³ لأن هذا المذهب أخذ به أهل الأندلس وطلبته أكثر من أهل المغرب عامة وستتطرق إلى ذكر بعض من الفقهاء الأندلسيين الذي أخذوا بهذا المذهب.

⁴ ينظر ترجمته في: أبو زيد الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ج: 02، تحقيق: محمد الأحدي أبو النور وآخرون، مطبعة السنة المحمدية-مكتبة الخانجي، مصر، ط: 02: 1968م، ص: 295، 298.

⁵ أبو العباس الفضل بن نصر الباهي المعروف بابن الرايس: كان فقيهاً صالحاً يميل إلى مذهب الشافعي وإلى النظر والحجة، وقال أبو بكر المالكي: "كان عالماً بمذهب الشافعي"، سكن سوسة ثم انتقل منها إلى القيروان، وكانت له مهمة ورئاسة بالقيروان وحسن هيئة، وله شعر راق وأدب عظيم، وله مخاطبات ومراثي عديدة رثى بها ابنه الذي فقده بالجزيرة، توفي سنة (344هـ). ينظر: أبو زيد الدباغ، المصدر نفسه، ج: 03، ص: 56.

⁶ حفيظ كعوان، أثر فقهاء المالكية الاجتماعي والثقافي بإفريقية (من القرن 2هـ - 5هـ/8م - 11م)، مذكرة ماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة الحاج لخضر، باتنة-الجزائر، 2008-2009م، ص: 115.

⁷ حفيظ كعوان، المرجع نفسه، ص: 115.

- ⁸ سبق لنا الترجمة له انطلاقاً من قول الدباغ على أنه مالكي المذهب لا شافعي ولعل ميله للنظر كما ذكر الدباغ جعل بعض الباحثين يعدونه في جملة الفقهاء الشافعية بالمغرب الإسلامي. ينظر: أبو زيد الدباغ، المصدر السابق، ج: 01، ص: 261؛ حفيظ كعوان، المرجع نفسه، ص: 115.
- ⁹ القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ج: 02، ضبط وتصحيح: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط: 01، 1998م، ص: 326.
- ¹⁰ نجم الدين الهنتاني، المذهب المالكي بالمغرب الإسلامي إلى منتصف القرن (5هـ/11م)، منشورات تير الزمان، تونس، ط: 2004م، ص: 110.
- ¹¹ ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، دراسة وتحقيق: مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط: 01، 1996م، ص: 334.
- ¹² محمد بن محمد مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة السلفية، القاهرة - مصر، ط: 1349هـ، ص: 73.
- ¹³ ابن فرحون، المصدر السابق، ص: 219.
- ¹⁴ نجم الدين الهنتاني، المرجع السابق، ص: 110.
- ¹⁵ الشوكية: أتباع محمد بن عبدوس في مسألة الاستثناء في الإيمان. ينظر: حفيظ كعوان، المرجع السابق، ص: 117.
- ¹⁶ سحب بقيا حوالي أربع عشرة سنة، أثر فيها الرواية عنه، ومال إلى كتب الشافعي فغني بها، وحفظها وتفقه فيها". ينظر: عمر الجديدي، مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط - المغرب الأقصى، ط: 01، 1993م، ص: 23.
- ¹⁷ أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج: 02، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت - لبنان، ط: 1988م، ص: 528.
- ¹⁸ عمر الجديدي، المرجع السابق، ص: 25.